التراث في فكر المجددين
أمين الخولي

أ. د. حسين نصار(*)

أمين إبراهيم عبدالباقي عامر الخولي... ولد في شوشاي من مركز إشمون في محافظة المنوفية، في أول مايو ١٨٩٥م، وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي، التي أنشأها إصلاحيو مصر لتكون تجربة علمية تلتقي فيها الثقافتان العربية والغربية التقاءً متوازنًا.

وفي ١٩٢٠م تخرج في المدرسة، ولما كان ترتيبه الثاني فقد عُين مدرسًا بها في ١٩٢٠/٥/١٠م. وفي ١٩٢٣/١١/٧م عُين إمامًا للسفارة المصرية في روما. وفي ١٩٢٦/٥/١ نُقل إلى مفوضية مصر في برلين، وقد أتاح له هذا تعلم اللغتين الإيطالية والألمانية.

وفي ١٩٢٧/٣/١٩م عاد إلى مدرسة القضاء الشرعي، غير أنها أغلقت في ١٩٢٨/١١/٣م فانتقل إلى التدريس في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن)، وتدرج فيه إلى أن صار في ١٩٤٣/٢/١٧م أستاذًا لكرسي الأدب العربي، ثم انتقل منه في ١٩٤٦/١٠/١٩م إلى كرسي الأدب المصري في العصور الإسلامية، وصار رئيسًا لقسم اللغة العربية ثم وكيلا للكلية.

وفي ١٩٥٣م احتدمت خلافات في الكلية، طوحت بعدد من أعضائها خارجها. وكان منهم أمين الخولي الذي عُين مستشارًا فنيًا لدار الكتب المصرية في ١٩٥٣/٦/١٢م، ثم مديرًا عامًا للثقافة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عندما بلغ الستين من العمر، وفي ٩ مارس ١٩٦٦م وافاه أجله، ودُفن في قريته.

وصور الخولي نفسُه انتقالَه من مدرسة القضاء الشرعي إلى كلية الآداب، وما وجده فيها فقال: «دخلت كلية الآداب أواخر عام ١٩٢٨، والجو كله منتعش منعش، يهفو إلى الجديد، ويشعر بثقل الوقوف الجامد لدراسة العربية وعلومها.. فدخلت ميدان التجديد الأول، على خبرة به، ورأى ثابت عنه، وخطة بينة فيه، أدرت عليها عملي في درس البلاغة وسواها».

---

* المشرف على لجان التحقيق بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

إذن دخل الشاب الذى قاد إحدى مظاهرات ثورة ١٩١٩م، وآمن بأن الحرية وسيلة الحياة الكريمة، وأن:

الفنان العبد لا يمثل مجتمعًا حرًا
والفنان الذليل لا يمد مجتمعًا كريمًا
والفنان الأسير لا يحدو مجتمعًا مستقلا
والتحرر الفنى أساس النهضات الصادقة جميعًا

دخل هذا الشاب ابن الثالثة والثلاثين (ميدان التجديد الأول) فاشترك فى نشاطه بقوة حتى صار ذات يوم فارسه الأول.

فقد أخلص لثورته الفكرية التى من أجلها كره الأحكام القطعية، وكل أشكال الجمود النفسى والانغلاق على الذات، وتميزت أبحاثه بالجدية والعمق، وأفكاره بالموضوعية والتقدمية والجرأة. إذا استبان الفكرة، وقلَّبَ منها جوانبها، واعتقد أن ما وصل إليه الحقيقة، اندفع يشرحها ويدافع عنها فى عزيمة مؤمن، وقوة محارب، وقدرة تيار متدفق، لا يخشى أن تكون مما يرضى الناس أو يبغضهم.

ومن ثم وصف عصره بعصر النضال فى سبيل التجديد، لاسيما التجديد الأدبى، الذى آمن أنه متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة اجتماعية، ومواصلة النماء من حيث وقفته عوامل جمود. وأعلن أن الشرق جاوز العهد الذي كان يسير فيه ناظرًا إلى الوراء، ظانًا أن عصور الحياة الذهبية قد مضت، وأنه لم يبق من الدنيا إلا الردىء والحشف... وقد أدرك هذا الشرق - أو المستحقون للحياة فيه على الأقل - أن فى الدنيا أشياء كثيرة لم تعرف بعد، وأيقنوا أن الكلمة الأخيرة لم تقل فى شىء ما بعدُ؛ لأن مطامح الناس من حولهم، ومطامع المحاولين حواليهم، امتدت إلى كل شىء، ورجت كل شىء».

هذا المجدد الثائر رفع شعارين لتجديده قال فيهما: «النهضة تجديد لا تبديد» و«أول التجديد قتل القديم بحثًا». فقد كان يعد التراث الحصيلة الكاملة للثقافة المتراكمة لأمة قُدِّر لها أن تكون من أطول الأمم التى درجت على الأرض عمرًا، ومن أكثرها مساهمة فى بناء حضارة الإنسان.

ولما اهتز كيان الشرق تحت الهجمات الاستعمارية، وترنح يكاد يسقط ذاهب الوعى، ضائع الرشد، كان المِساك الوحيد، واللياذ الأكبر له - إذ ذاك - هو ما بقى من اعتداد بشخصية تلك الثقافة الإسلامية، واستمساك بعُراها، واعتزاز بماضيها، واستظهار بقوتها.

ويمكن القول بأن الخولى لم ينتقص من قدر الأقدمين، بل عرف لهم أقدارهم ومكانهم من التاريخ ومن المعرفة الإنسانية، وأوجب الاتصال بهم مثل الاتصال بالفكر الحديث. وأعلن أن الاتصال الشديد الوثاقة بقديم لغتنا وآدابنا وفنوننا اتصال ينال كل مستتر خفى، ويجمع كل ما تفرق، ويستخرج منه خير ما فيه، ويعرف طابعه الخاص، ومزاياه المفرَّقة بينه وبين غيره، حتى أخذنا ما نأخذ منه على هدى وبصيرة.

ودعا إلى استقصاء جمع التراث العربى المفرق فى مكتبات العالم، وإلى تحقيقه على أقوم المناهج ليخرج بين أيدينا سليمًا، يمكن الحكم عليه، والانتفاع به، كما دعا إلى دراسته.

ودعا إلى أن نظل مخلصين لقديمنا ما استطعنا حسنى الظن به ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ـ فنلتمس خيره ـ ونجلو ما فيه من محاسن، قبل أن نلتمس له زيًا غريبًا، أو سمتا دخيلا، أو زينة من تطرية الآخرين، فقد كان يؤمن بإمكان أن يتجدد بماء الحياة.

وحاول جاهدًا أن يتعرف أبعاد مناهج القدماء ومقوماتها وخصائصها.

وحاول أكثر من ذلك أن يتبين ما يبقى من هذه المناهج ومقوماتها وخصائصها.

وحاول أكثر من ذلك أن يتبين ما ينبغى أن يبقى من هذا التراث المجيد.

وكثيرًا ما طوَّع بعض هذه المناهج لمقتضيات التفكير الحديث.

وكثيرًا ما انتخب من المصطلحات التراثية ما يساير تقدم المعرفة فى مجال الدراسات الإنسانية.

وما أكثر ما اعتمد فى أحكامه على أقوال القدماء بعد تحريرها، وشغل نفسه بالرد على كل من انتقص شيئًا من التراث، رأى الخولى أنه لا يستحق هذا الانتقاص، سواء كان الخصم عربيًا مثل إسماعيل مظهر، أو أجنبيًا مثل من كتبوا مواد فى دائرة المعارف الإسلامية، رد عليها هو بأبحاث مطولة نشرت فى الطبعة العربية منها.

وليس معنى ذلك أنه كان يقدس التراث العربى، بل كان يعرف أن منه ما أساء إليه ركام من مخلفات عقول مريضة أرادت الحياة الرخيصة فرمت جيفتها فوق وجه الحياة، ومنه ما أنتجته عقول أخطأت الطريق السوى فى التعامل مع ما تعاملت معه من فكر.

وجعل من الفكر الغربى أحد منابع الإحياء والتأثير فى الحياة المصرية المعاصرة، ورأى أن من واجبنا أن نفيد منه، فى تنقيح مفهوماتنا، وتصحيح نظراتنا، وإثراء أرواحنا، حتى نضيف إلى تقاليدنا الناضرة تقاليد جديدة.

ورأى أن أنْفَسَ ما نقتبس عن الغرب فى الدراسات الشرقية والإسلامية أساليب البحث العلمى، وطرائق النقد الدقيق الحر المنتظم، ومعرفة نواميس حياة اللغات والآداب والفنون، وصلتها بالحياة، وما جدّ من مناهج بحثها، وتناولها بالنقد والتمحيص المستهدى بالخبرة الكاملة فى شؤون النفس الإنسانية وشجونها، المستفيد من ظواهر التغير والتقدم التى شملت نواحى الحياة الأخرى من علمية وعملية.

واستنكر خصومة الثقافات الأجنبية والدعوة إلى عدم الاستفادة منها، وإن كان هذا الاستنكار لم يمنعه من الرد على ما تحقق من خطئه منهم.